بحث محكم | قسم الدراسات الدينية | 25 يناير 2018

فاطمــة من التاريخ إلى المتخيّل

بسّام الجمل
باحث تونسي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2018
All rights reserved © 2018

فاطمة من التاريخ إلى المتخيّل[1]

1- يمثّل هذا العمل الفصل الأوّل من كتاب: "جدل التاريخ والمتخيّل: سيرة فاطمة"، تأليف: بسّام الجمل، منشورات مؤسّسة "مؤمنون بلا حدود" للدراسات والأبحاث، ط1، 2016 - ص ص 23 - 54.

الملخّص:

مدار هذا العمل على غرضين متكاملين: أوّلهما دراسة سيرة فاطمة ابنة النبيّ في الواقع التاريخي، وثانيهما الانتقال بسيرة فاطمة من التاريخ إلى المتخيّل (L'imaginaire). فبخصوص الغرض الأوّل درس المؤلّف سيرة فاطمة على نحو ما يُعتقد أنَّها جرت في نسيج الاجتماع والعمران والتاريخ، وذلك في ضوء ما توفّر من أخبار وروايات عن الشخصيّة المدروسة. وتبيّن أنَّ هذا المستوى من سيرة فاطمة يمكن تناوله عبر محطّتين متعاقبتين زمانيّاً هما: فاطمة في رعاية الرسول من جهة، وفاطمة بعد وفاة الرسول من جهة أخرى. وأفضى البحث، ههنا، إلى حقيقة يبدو أنَّها لم ترضِ الضمير الإسلامي بشقّيْه السُنّي والشيعي، مفادها أنَّ سيرة فاطمة في التاريخ باهتة جدّاً (الخصاصة، عدم تقدّم شباب مكّة لخطبتها، سوء المعاملة من زوجها عليّ بن أبي طالب أوّلاً، ومن الخليفة أبي بكر ثانياً، عدم تأدية أيّ دور مهمّ في مسيرة الإسلام الناشئ...). وهذا الأمر أحوج كتّاب السيرة وأهل الأخبار إلى الانتقال بسيرة فاطمة من واقع التاريخ إلى خطاب المتخيّل. وهنا درس المؤلّف أهمّ مبرّرات ذلك الانتقال (المبرّر التاريخي...، المبرّر الجدالي المذهبي بين أهل السُنّة والشيعة...). ثمّ رصد المؤلّف أبرز التقنيات التي استخدمها القدامى في تحقيق ذلك الانتقال المشار إليه أعلاه (التبئير، التحويل، الإنتاج). وانتهى المؤلّف إلى القول إنَّ القدامى انتقلوا بفاطمة من شخص تاريخي (personne historique) إلى شخصيّة متخيَّلة (personage imaginaire)، وهم بذلك يعيدون باستمرار كتابة سيرة فاطمة مثلما تمثّلوها في ضميرهم الجمعي. ومن ثمّ أسّسوا على التدريج صورة عن فاطمة مفارقة للتاريخ.

1- فاطمة في التاريخ:

1-1- فاطمة في رعاية الرسول:

إنَّ المعلومات المتوافرة عن حياة فاطمة قليلة من منظور تاريخي علمي، ولكنّ حجم الأخبار المتعلّقة بترجمتها، من وجهة نظر تمجيديّة احتفاليّة، كبير جدّاً. ولا شكّ في أنَّ تلك الأخبار أسندت إليها بعديّاً من الأتباع المناصرين لها قديماً وحديثاً. وبخصوص تاريخ مولد فاطمة، فإنَّ أقوال القدامى فيه لا تخرج، على العموم، عن ثلاثة مواقف هي الآتية:

- **مولدها قبل البعثة**: إمّا بسنة واحدة[1]، وإمّا بخمس سنوات، في أغلب الآراء[2]، ما يعني أنَّ سنّ الرسول، وقتئذ، كانت في حدود خمسٍ وثلاثين سنة، وسنّ خديجة، أمّها، نحو خمسين سنة.

- **مولدها عند البعثة**: وهو قول مالَ إليه تحديداً المنّاوي[3]، ما يدلّ على أنَّ سنّ الرسول كانت أربعين سنة، وأنَّ سنّ خديجة كانت في حدود خمس وخمسين سنة.

- **مولدها بعد البعثة:** إمّا بسنتين[4]، وإمّا بخمس سنوات، في جلّ الأقوال الممثّلة لهذا الموقف[5]، ما يعني أنَّ سنّ الرسول كانت في حدود خمس وأربعين سنة، وسنّ خديجة، عند إنجاب فاطمة، كان ستّين سنة بالتمام والكمال.

وجليّ أنَّه لا يمكن، من وجهة نظر تاريخيّة، التوفيق بين هذه المواقف الثلاثة، مهما كانت المبرّرات والحجج، التي يمكن سوقها في هذا الباب. ونحن قصدنا تحديداً ذكر سنّ خديجة، في مختلف المواقف السابقة، بغية التنبيه إلى أنَّ الخائضين في ترجمة فاطمة اصطدموا بمشكلٍ حقيقيّ استعصى عليهم حلّه، ولكنّهم سكتوا عنه، وتكتّموا عليه، ومفاده أنَّ القول إنَّ فاطمة وُلِدَت قبل البعثة النبويّة بخمس سنوات يتناسب، في العادة، والسنّ القصوى للإنجاب (50 سنة)، ولكن تترتّب على القول المذكور حقيقة لم يكن القدامى مستعدّين لقبولها، وهي أنّ قسماً مهمّاً من طفولة فاطمة قضّته وأبواها على دين، أو أديان أجدادهما[6].

1- انظر ابن حجر، الإصابة، ج8، ص54.

2- راجع المجلسي، بحار الأنوار، ج43، ص9، والمنّاوي، إتحاف السائل، ص2، وابن سعد، الطبقات، ج5، ص18.

3- انظر إتحاف السائل، ص2.

4- نقصد رواية الشيخ المفيد في كتابه: حدائق الرياض، الذي نقل عنه المجلسي. انظر: بحار الأنوار، ج43، ص8.

5- الرواية السنيّة يمثّلها جابر بن عبد الله الأنصاري، والرواية الشيعيّة يمثّلها جعفر الصادق. انظر: بحار الأنوار، ج43، ص6 وص9.

6- ربّما كانت خديجة على دين النصرانيّة، مثل ابن عمّها ورقة بن نوفل. ويخاطب الوحي الرسول مذكراً إيّاه بالقول: {وَوَجَدَكَ ضالاً فَهَدَى} [الضّحى: 7]. وانظر بعض الإشارات إلى عقيدة محمّد قبل البعثة في: ابن الكلبي، الأصنام، ص19.

أمَّا القول إنَّ فاطمة وُلِدَت بعد البعثة بخمس سنوات، فإنَّه يحلّ المشكل السابق حلّاً جزئيّاً؛ ذلك أنَّه يمكّن فاطمة من أن تُولد في عهد الدعوة، وقد انقضت عن بدايتها خمس سنوات كاملة (أي: نحو نصف الطور المكّي من مدّة التنزيل). ولكنَّه، في الوقت نفسه، يجعل من خديجة أمّاً تنجب في سنّ الستّين، وهو أمر إن لم يكن مستحيل الحدوث، فإنَّه نادر التحقّق في التاريخ. وإذا ما حدث، فإنَّه سيكون -لا شكّ- موضوع حديث أندية قريش، ومجالسها، وبيوتاتها، تتعهّده الذاكرة الجمعيّة بالرواية والتداول، ولربّما خلّدته الأشعار، ولعلّه يكون مدعاةً إلى ضرب الأمثال في هذا الباب، وهو ما لم تنقله كتب التراجم والطبقات أصلاً.

ولئن اختلف القدامى في ضبط تاريخ ولادة فاطمة، فإنَّهم اتّفقوا على ما كان لها من أشقّاء وشقيقات[7]؛ ذلك أنَّ لها من الذّكور القاسم، وعبد الله، ولها من الإناث أمّ كلثوم، ورقيّة، وزينب. ولكن من الواضح أنَّ تباين الأقوال، بشأن تاريخ مولد فاطمة، قد انعكس على تعدّد الآراء حول ترتيب فاطمة بين أخواتها. ويظهر أنَّ الرأي الذي فرضه كتّاب الحوليّات والتراجم قضى بأن تكون فاطمة أصغر شقيقاتها، وهي تأتي في المرتبة الرابعة، بعد زينب، ورقيّة، وأمّ كلثوم، مع وجود آراء أخرى مخالفة لم يُكتَب لها الشيوع والرواج، من نحو اعتبار رقيّة أصغر من فاطمة، أو من قبيل اعتبارها توأم عبد الله ابن الرّسول[8].

ولكنَّ المهمّ، بالنسبة إلينا ههنا، هو تشديد القدامى على أنَّ فاطمة أصغر أبناء الرسول وبناته، وفي ذلك دلالة مهمّة في تعيين خصوصيّات علاقة الأب بالبنت الصغرى، لا سيّما من منظور علم التحليل النفسي، وهو ما سندرسه لاحقاً في هذا العمل[9].

وإذا ما تقدّمنا شوطاً في حياة فاطمة الفاصلة بين مولدها، وزواجها، فإنَّ المعلومات المقبولة تاريخيّاً، بشأن هذه الفترة، قليلة حتّى لا نقول معدومة. فنحن لا نكاد نعلم شيئاً عن مرحلة طفولتها (علاقتها بأخواتها، أترابها، ألعابها...)، ولن تكون فاطمة موضوع اهتمام إلّا حينما أصبحت مهيّأة للزواج. ولكنَّه، على ما يبدو، كان اهتماماً محدوداً، على الرغم من كونها ابنة النبيّ نفسه. وآية ذلك أنَّها تزوّجت في سنّ تتراوح بين خمس عشرة سنة وإحدى وعشرين سنة[10]، وهي سنّ، كما ترى، متقدّمة جدّاً بالنسبة إلى سنّ الزواج المألوفة في الجزيرة العربيّة، إبَّان القرن السابع للميلاد، ففي سنّ الحادية والعشرين يمكن للمرأة أن تصبح جدّة[11].

7- في المقابل، أشار هنري لامنس إلى أنّ أهل السنّة لم يحصل بينهم إجماع على حقيقة وجود أبناء الرسول من الذكور، باستثناء ابنه القاسم (ت 10هـ)؛ لأنّ الرسول اشتهر بكنية أبي القاسم. انظر: Fatima et les filles de Mahomet; p. 2

8- انظر الطبراني، المعجم الكبير، ج22، ص397.

9- راجع، لاحقاً، الفصل الثالث من هذا الكتاب.

10- انظر المناوي، إتحاف السائل، ص5.

11- «قال الحسن بن صالح: أدركت جارة لنا جدّة بنت إحدى وعشرين سنة»، البخاري، الجامع الصحيح، ج2، ص257، (كتاب الشهادات).

والحقّ أنّنا لا نعثر على أسباب صريحة تفسّر عزوف شباب أهل مكّة خاصّةً عن التقدّم لخطبة ابنة الرسول، وإن حاولت بعض الروايات أن ترجع ذلك إلى موقف اتّخذه الرسول في هذا الموضوع[12]. فممّا قال ابن عبّاس: «كانت فاطمة تُذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فلا يذكرها أحد إلّا صدّه حتّى يئسوا منها»[13]. فهذه الرواية، على افتراض أنّها صحيحة تاريخيّاً، لا تعيّن دواعي ردّ الرسول طالبي يد ابنته فاطمة. فهل لهذا الصدّ علاقة بالشخوص الراغبين في الزواج بها (نسبهم، حسبهم، منزلتهم الاجتماعيّة، سنّهم، جمالهم...). ولعلّنا نشير، ههنا، إلى مفارقة في مواقف الرسول من تزويج بناته؛ إذ تؤكّد الرواية السالفة تشدّد الرسول في تزويج فاطمة، مقابل مرونته وتساهله في تزويج بناته الأخريات من مشركي قريش.

وفي الروايات الشيعيّة ما يدلّ على أنّ صرامة الرّسول في تزويج ابنته فاطمة كانت، أيضاً، مع بعض أصحابه المقرّبين منه، والمساهمين في نصرة الإسلام والذود عنه، وهو في طور التأسيس والبناء. فقد تقدّم إليها، على التوالي، أبو بكر، وعمر بن الخطاب، ولكنّ طلبهما لم يحظَ بالقبول البتّة[14]. وإذا كنّا نستبعد، تماماً، تعليل موقف الرسول هذا بفارق السنّ بين فاطمة من جهة، وأبي بكر وعمر، من جهة أخرى[15]، فإنّنا، في المقابل، نردّ سبب الإعراض إلى عدم رغبة الرسول في تزويج ابنته إلى رجال متزوّجين، بغضّ النظر عن القيمة الاعتباريّة للأشخاص الراغبين في ذلك.

ولعلّ عليّاً بن أبي طالب فسّر موقف الرسول على هذا النحو من التفسير، فإذا به يطلب الزواج من فاطمة، وقد بلغ من العمر إحدى وعشرين سنة[16]. والحقّ أنّنا لا نعلم موقف فاطمة الصريح من هذا الطلب، سوى أنّها التزمت الصمت. وقد أوّل سكوتها في اتّجاه الدلالة على رضاها بهذه الزيجة، بل قد استُخلصت منه إحدى قواعد النكاح في الإسلام، «ففيه أنّه يُستحبّ استئذان البكر، وأنّ إذنها سكوتها»[17]. ولكن لِمَ لا يكون سكوت فاطمة تعبيراً غير مباشر عن رفضها الزواج من عليّ ابن عمّ النبيّ؟ لا سيّما أنّ نساء قريش قد بسطنَ ألسنتهنّ في تزويج فاطمة عليّاً، حتّى إنّ فاطمة نفسها نقلت إلى أبيها الحدث الآتي: «مررتُ على ملأ من نساء قريش، وهنّ مخضّبات، فلمّا نظرنَ إليّ **وقعوا فيّ وفي ابن عمّي** (...)، وقلن: كان قد عزّ على محمّد أن يزوّج ابنته من رجل **فقير قريش، وأقلّهم مالاً**...»[18].

12- ربّما لم تكن فاطمة على حظّ كافٍ من الجمال، الذي يطلبه شباب قريش من الفتاة بمقاييس الجمال المرغوب فيها في ذلك الوقت.

13- الطبراني، المعجم الكبير، ج22، ص410.

14- انظر ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج2، ص30، والمنّاوي، إتحاف السائل، ص5، والمجلسي، بحار الأنوار، ج43، ص108.

15- علّل لامنس رفض محمّد تزويج فاطمة بأبي بكر أو بعمر بصغر سنّ ابنته وقتئذ؛ إذ ليس لها تجربة مقارنة بحريم الخاطبين. ولربّما استحضر الرسول تجربته الشخصيّة حينما دخل بعائشة، وهي في سنّ التاسعة.

راجع: Fatima et les filles de Mahomet; p. 21

16- راجع ابن عبد البرّ، الاستيعاب، ج4، ص1893.

17- المنّاوي، إتحاف السائل، ص10.

18- المجلسي، بحار الأنوار، ج43، ص150 (التأكيد والتسويد من قبلنا).

ومن الثابت تاريخيّاً أنَّ الرسول لم يتراجع عن قرار تزويج ابنته. وفعلاً، فقد بنى عليّ بها في السنة الثانية للهجرة، بعد وقعة بدر، في أغلب الأقوال[19]، ولم تتجاوز المدّة الفاصلة بين الزواج والدخول بفاطمة بضعة أشهر (ما بين أربعة وستّة أشهر)[20]. ولم يكن المهر، الذي قدّمه عليّ لفاطمة، سوى درع حطميّة (أي: درع من حديد) أصابها من مغانم بدر، ثمّ باعها، وقبض الرسول ثمنها[21]. ويبدو أنَّ فاطمة لم تكن راضية النفس عمّا قُدِّم إليها من صداق أو مهر؛ لذلك نراها تحتجّ على الرسول قائلةً: «زوّجتني بالمهر الخسيس»[22].

وفضلاً عن ذلك، كان متاع بيتها متواضعاً جدّاً[23]، لا يكاد يكفي الحاجيّات الحياتيّة الضروريّة من نحو إهاب كبش، ووسادة، وقربة، ورحى، وجرّتين[24].

وقد أثمر الزواج المذكور إنجاب عدد من الأبناء والبنات؛ إذ كان لعليّ وفاطمة من الذكور ثلاثة هم: الحسن، والحسين، والمحسّن[25]. وتذهب بعض الروايات إلى أنَّ هذه الأسماء الثلاثة فرضها الرّسول على الأبوين، لا سيّما أنَّ الابن الأكبر لعليّ (أي: الحسن) قد سمّاه أبوه حرباً، أو حمزة، وسمّى الابن الثاني (أي: الحسين) جعفراً[26]. وكان لعليّ وفاطمة من الإناث أمّ كلثوم الكبرى، وزينب الكبرى. فالأولى تزوّجها عمر، ثمّ جعفر بن أبي طالب[27]. أمّا البنت الثانية، فقد تزوّجها عبد الله بن جعفر بن أبي طالب[28]. وتجنح أغلب الروايات إلى القول: إنَّ مولد الحسن والحسين كان على التوالي في السنتين الثانية والرابعة للهجرة، «على ما في ذلك من التنازع في التاريخ»[29].

ويبدو أنَّ إنجاب الأبناء لم يحقّق لفاطمة الاستقرار الأسري والتوازن النفسي المطلوبين، نظراً إلى ما كانت تلقاه من صعوبة في العيش، ومن قسوة الحياة عليها؛ إذ كانت تلقى في حياتها اليوميّة ألواناً من الضنك

19- انظر: الديار بكري، تاريخ الخميس، ج1، ص361.

20- المنّاوي، إتحاف السائل، ص5.

21- انظر ابن حجر، الإصابة، ج8. ص54، وابن شاهين، فضائل سيّدة النساء، ص12.

22- المجلسي، بحار الأنوار، ج43، ص144.

23- لاحظ لامنس أنّ فاطمة، حينما تزوّجت عليّاً، لم تحمل معها شيئاً تؤثث به بيت الزوجيّة. فهي كانت تشكو قلّة ذات اليد، وهنا رجّح المؤلّف فرضيّة أنّ محمّداً لم يرث شيئاً من خديجة، وهو ما يدعو إلى السؤال: هل إنّ تجارة خديجة أفلست؟ أم إنّ الكلام على «التجارة المزدهرة» ليس سوى غرض سكن مخيّلة كتّاب السيرة النبويّة، ولا يمتّ إلى الواقع التاريخي بصلة؟، راجع:

Fatima et les filles de Mahomet; pp. 19-20.

24- انظر الديار بكري، تاريخ الخميس، ج1، ص361، والمجلسي، بحار الأنوار، ج43، ص143.

25- اختلف القدامى في شأن المحسّن: هل ولد بصفة طبيعيّة أم فسد في بطن أمّه، فوضعته قبل الوقت ميّتاً. انظر ابن قتيبة، المعارف، ص211، والمجلسي، بحار الأنوار، ج43، ص233، ويذكر ماسينون أنّ المحسّن أو المحسن معروف لدى الشيعة بـ: «صاحب السرّ الخفي» وأنّ نصبه التذكاري موجود اليوم في غرب حلب بسورية وتحديداً في مشهد الدكة لبني حمدان. انظر: L'hyperdulie, p. 571

26- انظر الديار بكري، تاريخ الخميس، ج1، ص418.

27- راجع ابن قتيبة، المعارف، ص210، والذهبي، سير أعلام النبلاء، ج2، ص152.

28- انظر ابن قتيبة، المعارف، ص211.

29- المسعودي، مروج الذهب، ج2، ص581.

والتعب، حتّى إنَّ عليّاً تحدّث عنها يوماً، فقال: «جرّت بالرحى حتّى أثّرت بيدها، واستقت القربة حتّى أثّرت القربة بنحرها، وأقامت البيت حتّى اغبرّت ثيابها، وأوقدت تحت القدر حتّى دنّست ثيابها، وأصابها من ذلك ضرّ»[30]. وقد سألت، يوماً، النبيّ أن يوفّر لها خادماً، ولكنّه امتنع عن إجابة طلبها[31].

وتضافرت الروايات القديمة في إبراز جوع فاطمة وأبنائها؛ فقيل، من جملة ما قيل، إنَّها كانت تقضي ليالي دون أن تجد ما تسدّ به الرمق، وإنَّها اعتادت أن تقول للرسول القول نفسه، من نحو:

- «ما كان عندنا، منذ ثلاثة أيّام، شيء نقريك به»[32].

- «إنَّ الحسن والحسين قد اضطربا عليّ من شدّة الجوع، ثمّ رقدا كأنّهما فرخان منتوفان»[33].

- «أصبحنا وليس في بيتنا شيء يذوقه ذائق»[34].

ومن المرجّح تاريخيّاً أنَّ ما كانت تعانيه فاطمة من مشقّة كبيرة في حياتها اليوميّة من أعباء وخصاصة وجوع، مثّل سبباً من أسباب ما عرفته حياتها الزوجيّة من توتّر مستمرّ. وتشير بعض الروايات إلى أنَّ عليّاً كان يعاملها بشدّة وقسوة. وربّما انقطعت بينهما لغة الحوار والتواصل في أكثر من مناسبة، وما يمكن أن يترتّب على ذلك من ردود أفعال تهدّد أسس الحياة الزوجيّة. فـ: «عن المنهال بن عمرو أنَّه كان بين علي بن أبي طالب وبين فاطمة كلام، وأنَّه هجرها، فخرج من بيتها، فأتى المسجد، فنام في التراب»[35]؛ ولذلك تعدّدت محاولات تدخّل الرّسول لإصلاح ذات البين بينهما، وتمَّت المصالحة بينهما بطريقة طقوسيّة يشفّ عنها الخبر الآتي: «ألقي له (الرّسول) مثال، فاضطجع عليه، فجاءت فاطمة فاضطجعت من جانب، وجاء عليّ فاضطجع من جانب. فأخذ رسول الله بيد عليّ فوضعها على سرّته، وأخذ بيد فاطمة فوضعها على سرّته، ولم يزل حتّى أصلح بينهما...»[36].

ومن غير المستبعد أن تكون مثل هذه العلاقة الزوجيّة المضطربة من دواعي ما أقدم عليه عليّ من خطبة جويريّة بنت أبي جهل[37]، ما يعني رغبته في التزوّج على فاطمة، بعد أن أنجبت الحسن والحسين وأمّ

30- أبو نعيم الأصفهاني، حلية الأولياء، ج2، ص41. وانظر أيضاً المجلسي، بحار الأنوار، ج 43، ص 82.

31- الأصفهاني، حلية الأولياء، ج2، ص41.

32- المجلسي، بحار الأنوار، ج43، ص31.

33- المصدر نفسه، ج43، ص73.

34- المنّاوي، إتحاف السائل، ص28.

35- ابن شاهين، فضائل سيّدة النساء، ص11.

36- ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج5، ص19. وانظر الخبر نفسه عند المجلسي، بحار الأنوار، ج43، ص146. و«مثال»: فراش.

37- راجع ابن الجوزي، صفوة الصفوة، ج1، ص13.

كلثوم[38]. ومن الطبيعي أن تتملّك الغيرة فاطمة، وأن يشتدّ غمّها، فلاذت بأبيها تطلب منه التدّخل العاجل لمنع حصول الزيجة. وكان موقف الرسول حاسماً وقطعيّاً يظهر في قوله: «لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدوّ الله عند رجل واحد أبداً»[39]. وفضلاً عن ذلك، فقد خطب عليّ، في وقت لاحق، أسماء بنت عميس. ويظهر أنَّ الرسول تدخّل لدى أسماء حتّى تقطع الطريق على رغبة عليّ في الارتباط بها[40].

وتؤكّد بعض الروايات الشيعيّة خاصّةً بحث عليّ عن «مغامرات عاطفيّة» خارج إطار الزواج، وهذا ما أتاه فعلاً مع جارية كانت قائمة على خدمته في بيت فاطمة. فممّا رواه أبو ذرّ الغفاري: «دخلت فاطمة بـ يوماً، فنظرت إلى رأس عليّ ـج في حجر الجارية، فقالت: يا أبا الحسن فعلتها. فقال: لا والله يا بنت محمّد ما فعلت شيئاً، فما الذي تريدين؟ قالت: تأذن لي في المصير إلى منزل أبي رسول الله صلى الله عليه وسلم...»[41].

وإذا كانت الرواية الرسميّة السنيّة والشيعيّة تشدّد على أنَّ عليّاً لم يتزوّج قبل فاطمة، ولا عليها، حتّى وفاتها[42]، فإنَّ رواية أخرى تناقضها يبدو أنَّها أفلتت من رقابة الرواية الرسميّة الرائجة؛ فـ: «عن عبد الملك بن ميسرة، سمع زيد بن وهب، عن عليّ ـج، أنَّ النبيّ صلى الله عليه وسلم أُهدِيت له حلّة سيراء، فأرسل بها إليّ، ففرحتُ بها، فعرفتُ في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم الغضب. قال: **فقسّمتها بين نسائي**»[43]. وفي ذلك دليل على أنَّ لعليّ نساء، ولا يزال الرسول على قيد الحياة[44].

والذي نخرج به، ممّا سبق قوله، أنَّ الجزء الأكبر من حياة فاطمة قد قضته وهي في رعاية أبيها رسول الله، سواء قبل الزواج أم بعده. وقد تأكّد لدينا أنَّ المعطيات التاريخيّة الثابتة عن حياة فاطمة مضطربة ومتناقضة أحياناً، فضلاً عن محدوديّتها؛ فطفولة ابنة الرسول يلفّها غموض شديد، ولا شيء يُذكر عن علاقتها بأشقّائها وشقيقاتها وبأمّها خديجة. وعلى الرغم من ذلك أمكن لنا إعادة بناء حياة فاطمة في هذا الطور من وجودها، مكتفين بما ينسجم مع سنن الاجتماع الإنساني من ناحية، وبما يتّفق مع القيم الاجتماعيّة السائدة في الوسط القبلي في شبه الجزيرة العربيّة في بدايات القرن السابع للميلاد من ناحية أخرى.

ومهما يكن من أمر، فإنَّ ما ميّز حياة فاطمة، في هذه المرحلة، هو ما كانت تعانيه من فقر وخصاصة وجوع، وما تولّد، جرّاء ذلك، من توتّر علاقتها بعليّ، إلى حدّ حصول النفرة بينهما وانقطاع حبل الوصال

38- انظر: المجلسي، بحار الأنوار، ج43، ص201.

39- المنّاوي، إتحاف السائل، ص16، وكذلك ابن شاهين، فضائل سيّدة النساء، ص9-10، وأيضاً الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج2، ص133.

40- راجع الطبراني، المعجم الكبير، ج22، ص405، وأيضاً، المنّاوي، إتحاف السائل، ص17.

41- المجلسي، بحار الأنوار، ج43، ص147، وتجدر الإشارة إلى أنّ في تتمّة الخبر ذكراً لتدخّل جبريل لنصرة عليّ، وتكذيب ظنّ فاطمة. وقد طلب الرسول من عليّ أن يعتق الجارية.

42- انظر: الديار بكري، تاريخ الخميس، ج1، ص361، والمنّاوي، إتحاف السائل، ص5.

43- ابن حنبل، المسند (مسند العشرة المبشّرين بالجنّة، حديث رقم 650)، ضمن: موسوعة كتب الحديث التسعة (التأكيد والتسويد من قبلنا).

44- معلوم أنّ وفاة فاطمة كانت بعد وفاة أبيها.

العاطفي، وإن استمرّ عقد الزواج بينهما قائماً. وإذا كان هذا حال فاطمة، وهي في رعاية أبيها وحمايته، فكيف سيكون أمرها بعد وفاته؟

1-2- فاطمة بعد وفاة الرسول:

مثّلت وفاة الرسول حدثاً فارقاً في حياة فاطمة؛ إذ افتقدت، بغيابه، كلّ مظاهر الرعاية الأبويّة، والحماية التي كانت تنعم بها، في ضوء حياة زوجيّة صعبة، شابها الاضطراب والتقطّع، وسيطر عليها الفقر وقلّة ذات اليد. ويبدو أنّها لم تتمكّن من مداواة الجرح النفسي العميق، الذي سبّبه لها ذلك الفقدان، ولعلّه كان من دوافع هلاكها، بعد مدّة وجيزة من وفاة أبيها (ما بين ثلاثة وستّة أشهر)[45].

لقد كان على فاطمة أن تواجه واقعها الجديد، في ضوء تحوّلات حاسمة عرفها الوسط الاجتماعي والسياسي، الذي تنسب إليه وتنخرط فيه؛ إذ انتهى الوحي المحمّدي، وأصبحت السلطة السياسيّة والدينيّة بيد أوّل خليفة في الإسلام.

وفعلاً، فقد بدأت فاطمة مواجهتها لذلك الواقع الجديد، بمطالبتها بميراث أبيها في فدك، وهي قرية بضواحي المدينة كان للنبيّ نصفها، وهذا الجزء من القرية هو ثمن الصلح، الذي أبرمه الرسول مع أهالي خيبر في السنة السابعة للهجرة[46]. وحسب بعض الروايات الشيعيّة المتأخّرة، فإنّ أبا بكر لم يمانع في منح فدك لفاطمة، لكنّ عمر اعترض على ذلك بشدّة، بحجّة ألّا بيّنة لها على ما ادّعته من أنّ أباها جعل لها الأرض موضوع النزاع[47].

وفي هذا السياق، ظهر الحديث الذي احتجّ به أبو بكر في منع فاطمة فدك[48]، وهو قول الرسول: «لا نُورَث، ما تركنا صدقة»[49]. وجليّ أنّ الإشكال بين أهل السنّة والشيعة في هذا الباب هو: هل الرسول منح فدك لفاطمة في حياته أم لا؟ فإذا كان أهل السنّة يميلون إلى النفي، فإنّ الشيعة جنحوا إلى الإثبات. ومن أقوى الأدلّة، التي تمسّكوا بها، ههنا، أنّه لمّا نزلت الآية: **{وَآتِ ذا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ**

45- انظر المجلسي، بحار الأنوار، ج43، ص ص 188-189.

46- راجع ابن هشام، السيرة النبويّة، ج3، ص384.

47- انظر المجلسي، بحار الأنوار، ج43، ص198.

48- يرى ماسينيون أنّه حينما رفض أبو بكر منح فاطمة واحة فدك، نسي أنّ المرأة رمز «المثل الأعلى». للتوسّع، انظر: L'hyperdulie, p. 571

49- البخاري، الجامع الصحيح، ج2، ص386. (كتاب فرض الخمس، حديث رقم: 3093).

تَبْذِيراً} [الإسرَاء: 26]، دعا الرسول ابنته، ومنحها فدك[50]؛ ولذلك يرى علماء الشيعة، قديماً وحديثاً، أنَّ هناك علاقة متينة بين اغتصاب فدك وأحقيّة عليّ بالخلافة[51].

ومهما يكن من أمر، فإنَّ الثابت تاريخيّاً أنَّ فاطمة لم تنجح في الحصول على نصيب أبيها من فدك، وهو ما جعلها، على ما يبدو، تردّ الفعل بشدّة، لا سيّما تجاه خليفة المسلمين أبي بكر، حتّى إنَّها تجرّأت على مخاطبته على الملأ، قائلة: «يا بن أبي قحافة أفي كتاب الله ترث أباك، ولا أرث أبي؟ لقد جئت شيئاً فريّاً»[52]. فعظمت الوحشة بينهما، ولم تبايعه، «فهجرته، ولم تكلّمه، حتّى توفّيت»[53]. ومن المرجّح، عندنا، أنَّ الخطبة التي ألقتها فاطمة أمام أبي بكر، بحضور جمع من الصحابة، منسوبة إليها، وفيها بيّنت فساد حجج أبي بكر في منعه إيَّاها فدك[54].

إنَّ ضياع ميراث الأب يعني استمرار معاناة البنت الماديّة والنفسيّة، واستفحالها؛ إذ استبدّ بفاطمة حزن شديد[55]، فاتّخذت من مقابر المسلمين ملجأ كي تبكي قدرها ومصيرها. وتأكّد لديها أنَّه ليست لها أيَّة قيمة اعتباريّة أو رمزيّة، بعد موت أبيها. وتذكر المصادر الشيعيّة خاصّةً أنَّ عليّاً بنى لها هناك في البقيع بيتاً تأوي إليه، وتقيم فيه طوال اليوم باكيةً، سمّي، فيما بعد، «بيت الأحزان»[56]. وحينما أُريد إخراجها منه، أقسمت ألّا تتركه، وكشفت عن شعرها، وفي ذلك تعبير رمزي عن استغاثة المرأة الحرّة وسخطها[57].

وتشير الدلائل التاريخيّة إلى أنَّ عمر عنّف فاطمة بنفسه، حسب روايات، أو بإيعاز منه حسب روايات أخرى، حينما أمر قنفداً، مولى أبي بكر، بضربها بالسوط، وذلك للأسباب الآتية جميعها أو بعضها، على اختلاف الروايات:

- امتناعها عن مبايعة أبي بكر خليفة للمسلمين[58].

50- انظر: الشيرازي، الزهراء خير نساء العالمين، ص77.

51- من ذلك قول الشيرازي: «من الواضح أنّ وجود «فدك» في حيازة آل بيت محمّد صلى الله عليه وسلم، منذ البداية، سيكون مدعاة لالتفاف الناس حولهم، والبحث عن سائر آثار النبيّ الكريم صلى الله عليه وسلم في هذه العائلة، لاسيما مسألة الخلافة، وهذا الأمر لم يكن ليتحمّله مؤيّدو انتقال الخلافة إلى الآخرين». الزهراء خير نساء العالمين، ص76.

52- أبو منصور أحمد الطبرسي (ت 660هـ)، الاحتجاج، ج1، ص138.

53- المجلسي، بحار الأنوار، ج43، ص182. وفي المقابل، يرى بعض علماء أهل السنّة أنّ فاطمة رضيت عن أبي بكر قبيل وفاتها. انظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج5، ص20.

54- انظر نصّ الخطبة كاملاً عند ابن أبي طاهر البغدادي، بلاغات النساء، ص16-23.

55- قيل عنها: «ما رُئيت ضاحكة، بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتّى لحقت بالله عزّ وجلّ، ووجدت عليه وجداً عظيماً». ابن الأثير، أسد الغابة، ج7، ص225.

56- المجلسي، بحار الأنوار، ج43، ص177-178 والميلاني، فاطمة الزهراء، ص ص 186-187.

57- انظر: Massignon; L'hyperdulie, p. 571

58- انظر: تاريخ اليعقوبي، ج2، ص126.

- اتّخاذها من بيتها مكاناً لاجتماع المعارضة السياسيّة الطاعنة في شرعيّة تولّي أبي بكر السلطة[59].

- رفضها تسليم الكتاب الذي دفعه إليها أبو بكر والقاضي بمنحها فدك[60].

وقد وصل الأمر بعمر إلى أن هدّد فاطمة بإحراق بيتها بمن فيه، ونفّذ تهديده، أو كاد، بحسب اختلاف الروايات ههنا. وتجمع الروايات الشيعيّة على أنَّ فاطمة تلقّت ضربة بالسيف في جنبها، وفي عضدها، ما تسبّب لها في بعض الكسور، وفي سقوط جنينها المقدّر له من الأسماء محسّناً[61]. ومرّة أخرى، ردّت فاطمة الفعل بكشف شعرها[62].

وتشير المصادر التاريخيّة إلى أنَّ هذا الاعتداء كان من دواعي مرضها، الذي توفّيت فيه (في السنة الحادية عشرة للهجرة)[63]. وكان عمرها، حينئذ، ما بين إحدى وعشرين سنة وثلاثين سنة[64]. وقد دُفِنَت ليلاً، حتّى لا يعلم بأمرها أبو بكر وعمر. وترى الإماميّة الاثنا عشريّة أنَّ عليّاً تعمّد تغييب قبرها حتّى لا يُصَلَّى عليها[65].

أمَّا بخصوص الوصيّة المكتوبة، التي تركتها لعليّ، أو خطبتها المطوّلة، قبيل وفاتها[66] في جمعٍ من نساء المهاجرين والأنصار[67]، فممّا لا يمكن التأكّد من صحّته التاريخيّة. والمرجّح، عندنا، أنَّهما؛ أي: الوصيّة والخطبة، نُسِبتا إلى فاطمة في زمن متأخّر لا يمكن تعيينه بدقّة. أضف إلى ذلك إسناد رواية عدد من الأحاديث النبويّة إليها[68].

*****

لقد كان قصدنا من هذا المبحث الإلمام بسيرة فاطمة التاريخيّة، في خطوطها الكبرى وفي محطّاتها الأساسيّة، ومن ثمّ لم نتعامل مع الأخبار في هذا الباب، إلّا ما كان ممكنَ الحصول من منظور تاريخيّ بشكل

59- انظر: ابن عبد ربّه، العقد الفريد، ج4، ص247. وهذه المعارضة قد مثّلها عليّ، والعبّاس بن عبد المطلب، والزبير بن العوّام، وسعد بن عبادة.

60- العقيلي، ظلامات فاطمة، ص152.

61- راجع المجلسي، بحار الأنوار، ج43، ص197-198.

62- انظر: Massignon, La notion du vœu; p. 589

63- من وجهة نظر تاريخيّة، لا تهمّنا الأخبار التي ساقها القدامى، في ضبط تاريخ دقيق لوفاة فاطمة، ولم يحصل بينهم اتّفاق في هذا الباب، ومن هذه التواريخ ذكروا: 3 جمادى الآخرة، 21 رجب، 10 جمادى الآخرة، 3 رمضان... إلخ.

64- راجع: ابن حجر، فتح الباري، ج7، ص105 (حديث رقم: 3555).

65- انظر: المجلسي، بحار الأنوار، ج43، ص183.

66- انظر: المصدر نفسه، ج43، ص159-161.

67- راجع: المصدر نفسه، ج43، ص214.

68- روت في مسند بقيّ بن مخلّد 18 حديثاً. انظر الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج2، ص134.

يجعله منسجماً مع سنن الاجتماع الإنساني بصفة عامّة؛ بل إنَّ عدداً من هذه الأخبار رجّحنا إمكان تحقّقها في الواقع التاريخي، نظراً إلى انعدام الوثائق الماديّة الجديرة بثقة المؤرّخ.

والحاصل من سيرة فاطمة أنَّها لم تكن سوى شخصيّة عاديّة، سواء في حياة الرسول أم بعده؛ فلم تكن لها أيّة حظوة في وسطها الأسري الضيّق (قبل الزواج وبعده)، أو في وسطها الاجتماعي القبلي في مكّة ثمّ في المدينة. ولا خبر في المصادر التاريخيّة عن سبب عزوف شباب قريش عن طلب الزواج بها، على الرغم من كونها ابنة النبيّ، حتّى إذا قيّض لها الزواج من عليّ بن أبي طالب، فإنَّ ذلك تمّ بأَخَرَةٍ مقارنةً بسنّ تزويج الفتيات وقتئذ.

غير أنَّ وضع فاطمة الاجتماعي الجديد لم يجعلها تعرف سوى ضنك العيش، وتجرّع مرارة سوء المعاملة من زوجها، ما يكون قد دفعه إلى التزوّج عليها من فتاة قرشيّة ليست على دين الإسلام (ابنة أبي جهل). وتواصل سوء معاملتها، بعد وفاة أبيها، من أبي بكر وعمر، فلم تجد، في ظلّهما، أيّة حظوة، فكان مصيرها التهميش منهما ومن سواهما من أصحاب النبيّ.

ومن البديهيّ ألّا تُرضي هذه **السيرة التاريخيّة الباهتة علماء الإسلام**، سنَّة وشيعة، فانبروا يؤوّلون أحداث التاريخ المقترنة بفاطمة، **فأعادوا بناء سيرتها**، فأسّسوا، بذلك، **خطاباً في سيرة فاطمة** يعبّر عن نظرة الأجيال الإسلاميّة اللّاحقة إلى ابنة النبيّ، وإلى آل البيت عموماً، وقبل هذا وذاك نظرتهم إلى الرسول نفسه، بعد أن تبوّأ في ضمائرهم ووجدانهم منزلة مرموقة لا مزيد عليها.

وهكذا، التمس العلماء القدامى طرقاً شتّى علّها تمكّنهم من الانتقال المنشود من التاريخ إلى المتخيّل؛ أي: الانتقال من جفاف سيرة فاطمة وتواضعها، إلى ثراء سيرتها مثلما تمثّلوها وتصوّروها.

2- الانتقال من التاريخ إلى المتخيّل:

إنَّ الرهان المعقود من هذا المبحث هو التعرّف إلى الآليّات والتقنيّات التي اصطنعها العلماء المسلمون، في الانتقال من حقيقة فاطمة في التاريخ، إلى صورتها أو صورها التي تمثّلوها في متخيّلهم الجمعي. ولنا أن نسأل، ههنا، عن كيفيّات تعاملهم مع المادّة التاريخيّة المتوافرة لديهم، من أجل تأسيس صورة أو صور عديدة لفاطمة ابنة النبيّ، ما استدعى منّا بناء هذا المبحث على محورين متكاملين: أوّلهما: النظر في مبرّرات الانتقال من التاريخ إلى المتخيّل، وثانيهما: رصد أهمّ الطرائق التي تمّ بها الانتقال المذكور.

2-1- مبرّرات الانتقال:

من أقوى المبرّرات التي حملت علماء الإسلام على الانتقال بفاطمة من التاريخ إلى المتخيّل، ما لاحظوه من أنَّ الاقتصار على ما هو ثابت عنها في التاريخ مخيّب للآمال[69]، وعلّة ذلك الحضورُ الباهت والمحدود والمهمّش لهذه الشخصيّة في التاريخ. وهذه الحقيقة استدلّ عليها المستشرق هنري لامنس، وبنى عليها كتابه عن (**فاطمة وبنات محمّد**)[70]. ومن البديهيّ أن يعترض ممجّدو شخصيّة فاطمة على هذا المنهج في الكلام عليها والكتابة عنها[71]، وهو موقف لم يسر فيه بعض المستشرقين الذين استفادوا ممّا كتب لامنس[72].

وبالإمكان بيان مواطن اهتمام كتّاب الطبقات والتراجم من أهل السنّة بفاطمة، من خلال الجدول الآتي:

المؤلّف	المصدر	مواطن الاهتمام (على التوالي)
ابن سعد (ت 230هـ)	الطبقات الكبرى (ج5، ص14-22)	مولدها - زواجها بعليّ - شدّته عليها - مرضها - وفاتها.
الطبراني (ت 360هـ)	المعجم الكبير (ج 22، ص397-412)	موتها - دفنها - مناقبها يوم القيامة - منزلتها عند أبيها - تزويج فاطمة بأمر من السماء.
أبو نعيم الأصفهاني (ت 430هـ)	حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (ج2، ص39-43)	حظوتها عند الرسول - معاناتها الفقر والخصاصة - فضلها على مريم بنت عمران - وفاتها.
ابن عبد البرّ (ت 463هـ)	الاستيعاب في معرفة الأصحاب (ج4، ص1893-1899)	مولدها -اعتبارها من خير نساء العالمين (مريم، خديجة، آسية امرأة فرعون) - وفاتها.
ابن الجوزي (ت 597هـ)	صفوة الصفوة (ج4، ص9-15)	مولدها - زواجها - حظوتها عند أبيها - معاناتها في حياتها اليوميّة - وفاتها.
ابن الأثير (ت 630هـ)	أسد الغابة في معرفة الصحابة (ج7، ص ص 220-227)	زواجها بعليّ - منزلتها عند أبيها - مرورها بين الرجال يوم القيامة - وفاتها.

أهمّ ما يُلاحَظ، في الجدول أعلاه، أنَّ ترجمة فاطمة، في المصادر السنّية، إلى حدود منتصف القرن الثالث للهجرة (مع ابن سعد)، هي أقرب ما تكون إلى التاريخ؛ فكلّ الأحداث المتعلّقة بهذه الشخصيّة ممكنة الحصول من منظور تاريخي، وليس فيها ما يخرج عن سنن التاريخ وقوانينه المعروفة (ولادة، زواج، معاملة الزوج لها، المرض، الوفاة). ولكن يبدو أنَّه من نحو منتصف القرن الرابع للهجرة (مع الطبراني)،

69- راجع: H.Lammens; Fatima et les filles de Mahomet, p. 8

70- صدر الكتاب، في طبعته الأولى الفرنسيّة، سنة 1912م.

71- من ذلك أنّ الميلاني اعتبر لامنس من «أصحاب الأقلام المدسوسة، المليئة حقداً وغيظاً على الإسلام وقيمه، من حملة التبشير، ودعاة الصهيونيّة». فاطمة الزهراء أمّ أبيها، ص45.

72- لم يبد ماسينيون أيّ اعتراض على لامنس، في ترجمته المفصّلة لحياة فاطمة، في كتابه: فاطمة وبنات محمّد.

بدأت تتسلّل إلى هذه الترجمة معطيات وموادّ عنها لا يمكن قبولها، إلّا من وجهة نظر إيمانيّة لا علاقة لها بالتاريخ، من قبيل الكلام على مناقب فاطمة يوم القيامة، وتزويجها بأمر من السماء، ومرورها بين الرجال في اليوم الآخر. ومهما يكن الحال، فإنَّ حجم ما هو تاريخيّ كان مهمّاً.

والحقّ أنَّ الملاحظة السابقة ولّدت فينا أسئلة عديدة نراها مهمّة، من نحو: ما الذي يفسّر الالتفات إلى الموادّ غير التاريخيّة في ترجمة فاطمة في ذلك التاريخ المحدّد بمنتصف القرن الرابع الهجري؟ ألهذا الأمر علاقة بالشأن السياسي المروّج لفكر آل البيت؟ وهل ما لاحظناه من تحوّل في موادّ ترجمة فاطمة، ضمن المدوّنة السنيّة، هو نفسه الذي حصل في المصادر الشيعيّة، لا سيّما منها الإماميّة الاثني عشريّة؟

لا شكّ في أنَّ كلّ فكر ديني أو عقيدة دينيّة يحتاج، كي يسود ويروّج لأطروحاته، إلى نفوذ سياسيّ يشدّ أزره، ويفرض ذاك الفكر أو تلك العقيدة على الناس، سواء بحسن الأحدوثة، أم بقوّة السلطان... والمؤكّد، عندنا، أنَّ تمجيد آل البيت وتقديس رموزهم (علي، والحسن، والحسين، وفاطمة، وسائر الأئمّة)، بدأ مع بروز الدولة المنتصرة للمقالات الاعتقاديّة الشيعيّة، أو قيام الدولة الشيعيّة ذاتها. ومن ثَمَّ، لا نستبعد وجود علاقة متينة بين التطوّر الذي شهدته ترجمة فاطمة -وقد وجدنا أثره الباهت نسبيّاً في المصادر السنيّة القديمة- وتحكّم البويهيّين في دواليب الخلافة الإسلاميّة، المنتصرين للفكر الشيعي[73]. وهذا ما يدعونا إلى تفحّص مسار تطوّر ترجمة فاطمة في المصادر الشيعيّة، وبيان ذلك في الجدول الآتي:

المؤلّف	المصدر	مواطن الاهتمام (على التوالي)
ابن حمّاد الدولابي (ت 310هـ)	الذريّة الطاهرة النبويّة (ص ص 61-69)	علي وفاطمة: الخطبة والزواج والبناء - بيت فاطمة المتواضع - في تسمية ابني فاطمة الحسن والحسين.
ابن عبد الوهّاب (القرن 5هـ)	عيون المعجزات (ألّف سنة 448 هـ) (ص ص 46-53)	فاطمة تزهر لأهل السماء - تحدّث عليّاً بما كان ويكون وقت وفاتها - موضع قبرها - غضب عليّ من نبش قبرها - طهارة فاطمة - تزويجها في السماء - تحدّث أمّها خديجة وهي حامل - ولادة الحسن والحسين.
ابن كرامة (ت 494هـ)	تنبيه الغافلين عن فضائل الطالبيين	جمع ما نزل في آل البيت من آيات وتفسيرها تعويلاً على الآثار [البقرة: 2/14- 15 و37) - أسماء فاطمة الثمانية - مكانتها عند الرسول - المباهلة.
ابن شهر اشوب المزندراني (ت 588هـ)	مناقب آل أبي طالب (ج4، ص ص1-28)	تفضيل فاطمة على النساء - منزلتها عند الله - في حبّ النبيّ إيّاها - في معجزاتها - في تزويجها - في كنيتها وأسمائها - في وفاتها وزيارتها - حديث المباهلة.
أبو منصور أحمد الطبرسي (ت 620هـ)	الاحتجاج (ج1، ص ص131-149)	احتجاج فاطمة على القوم لمّا منعوها فدك - قولها في الإمامة.

73- بخصوص الدولة البويهيّة، من جهات خصائصها الوظيفيّة، وخصائصها البنيويّة، واقتصادها، راجع: مصطفى التواتي، المثقفون والسلطة في الحضارة العربيّة (الدولة البويهيّة نموذجاً)، ج1، ص23-199.

ابن شاذان القميّ (ت 660هـ)	الفضائل (ص ص 83-101)	رؤية الرسول اسم فاطمة مكتوباً على باب الجنّة - فاطمة سيّدة نساء العالمين - اعتراض فاطمة على تزويجها من عليّ - حديث الكساء.
المجلسيّ (ت 1111هـ)	بحار الأنوار (الجزء 43 كاملاً)	ولادتها وشمائلها - أسماؤها وفضائلها - مناقبها ومعجزاتها - تزويجها - ما وقع عليها من الظلم وحزنها - في قبرها ومكانها - تظلّمها يوم القيامة وكيفيّة مجيئها إلى المحشر - أولادها وذرّيتها وفضلهم - أوقافها وصدقاتها.

إنَّ الناظر في هذا الجدول ليلفت انتباهه المنعطف البارز، الذي أخذته ترجمة فاطمة في المصادر الشيعيّة، منذ القرن الخامس للهجرة. ومضمونه اكتساح عدد من العناصر غير التاريخيّة تلك الترجمة، وتنامي حضورها ومداها، كلّما تأخّرنا في الزمان، حتّى أصبحت المواد التاريخيّة، في تلك الترجمة، ضامرة جدّاً، مقارنة بالحضور المكثّف والواسع للمواد المنتمية إلى دائرة المتخيّل الديني. وقد بلغت هذه الظاهرة مداها الأقصى، فيما نقدّر، في الجزء الذي خصّصه المجلسي[74] لفاطمة، ضمن موسوعته الضخمة (**بحار الأنوار**)، حتى إنَّ الأحداث التاريخيّة المتعلّقة بفاطمة أصبحت تُروى بطريقة مغايرة لما كان عليه الحال في القرون الهجريّة الثلاثة الأولى، وهذا ما سنراه لاحقاً، حين نفصّل القول في ولادة فاطمة العجيبة، وحملها العجيب بالحسن والحسين، فضلاً عن ظهور معجزاتها، وأعمالها يوم القيامة، ودخولها الجنّة.

والجدير بالذكر أنَّ كلام المجلسي عن فاطمة يعكس تطوّر الفكر الشيعي، في نظرته إلى ابنة النبيّ، وذلك من أواخر القرن الثالث الهجري إلى بداية القرن الثاني عشر للهجرة؛ فقد نقل المجلسي عن عشرات الرسائل والكتب، التي اهتمّ فيها أصحابها بفاطمة، سواء أكان اهتماماً عرضيّاً (في سياق الكلام عن آل البيت)، أم اهتماماً كليّاً (تخصيص مؤلّفات للشخصيّة المدروسة). ولذلك كان المجلسي كثير الأخذ الحرفي من (**دلائل الإمامة**) للطبري (ت 310هـ)[75]، و(**أصول الكافي**) للكليني (ت 329هـ)[76]، و(**مولد فاطمة**) لابن بابويه (ت 329هـ)[77]، و(**فضائل الإمامة**) لابن شاهين المروزي[78]، و(**المعارف**) لابن قتيبة (ت 276هـ)[79] و(**الإبانة**) لابن بطّة العكبري (ت 387هـ)[80]... إلخ.

74- عاش المجلسي في ظلّ الدولة الصفويّة في إيران، وقد كان يمثّل سلطة ناشطة في مجالات السياسة والشؤون الاجتماعيّة والقضائيّة في أواخر العهد الصفوي. انظر: فصل «المجلسي» بقلم (Abdul Hadi Hairi) :ضمن: دائرة المعارف الإسلاميّة، ط2 بالفرنسيّة، ج5، ص1084- 1085.

75- انظر: بحار الأنوار، ج43، ص80 و170 و218 و230.

76- المصدر نفسه، ج43، ص113.

77- المصدر نفسه، ج43، ص115.

78- المصدر نفسه، ج43، ص86 و107.

79- المصدر نفسه، ج43، ص189 و233.

80- المصدر نفسه، ج43، ص44 و108 و120.

والمستفاد من جميع ما سبق أنَّ الانتقال من التاريخ إلى المتخيّل، في الكلام عن فاطمة، حدث في القرن الرابع الهجري، إن في بدايته (في المؤلفات الشيعيّة)، وإن في منتصفه (في المؤلّفات السنيَّة). ومن البديهيّ أن يكون للفكر الشيعي السبق في تضخيم سيرة فاطمة وتمجيدها، مقارنةً بالفكر السنّي، بسبب صلة هذه الشخصيّة الوثيقة بالإمام عليّ بن أبي طالب، ومن جاء بعده من الأئمّة. وهكذا، رُوِّجت أخبار شتّى عن فاطمة منتميةً إلى دائرة المتخيّل، ساعدت العلماء القدامى عموماً على بقاء هذه الشخصيّة حيّة في وجدان المسلمين وضمائرهم.

على أنَّ هناك سبباً آخر نراه يبرّر التحوّل من التاريخ إلى المتخيّل في شأن فاطمة، يتمثّل في السياق الجدالي المذهبي، الذي انتشرت فيه أقاويل أهل السنّة والشيعة، ومدارها على أفضل رجال الإسلام ونسائه. فإذا قامت في عالم الرجال مقابلة تامّة بين عمر (عند أهل السنّة)، وعليّ (عند الشيعة)، قامت كذلك، بالتوازي، مقابلة في عالم النساء، بين عائشة (لدى أهل السنّة)، وفاطمة (لدى الشيعة). وجليّ أنَّ هذه المقابلة أفرزت، على التدريج، صورة عن ابنة النبيّ في المتخيّل الإسلامي يبدو أنَّ الحبل، الذي يُفترض أن يشدّها إلى التاريخ، قد انصرم[81].

ذلك أنَّ الشيعة لم يكونوا، على ما يظهر، مقتنعين بكتابة سيرة فاطمة، مضارعة لسيرة عائشة، أو دونها مرتبة. وهذا الموقف مندرج في التنازع المستمرّ بين أهل السنّة والشيعة، حول جدارة امتلاك الرموز المرجعيّة المؤسّسة للفكر الإسلامي عموماً. ومن المرجّح أنَّ الشيعة قد انتبهوا، منذ وقت مبكّر، إلى المنزلة التي حظيت بها عائشة في الفكر السنّي، مقارنة بفاطمة، على الرغم من أسبقيّتها النسبيّة في الزمان، ورابطة الدم التي تشدّها إلى النبيّ. من ذلك أنَّ البخاري في (**الجامع الصحيح**) لم يثبت عن مناقب فاطمة سوى حديث واحد، بينما أفرد لعائشة ثمانية أحاديث مختلفة المضامين[82].

وهكذا، نرى هذين السببين كافيين لتبرير الانتقال من التاريخ إلى المتخيّل، واتّخاذهما تكأة لبناء صورة عن فاطمة، كما تمثّلوها، لا كما كانت سيرة الشخصيّة في التاريخ. غير أنَّ الحديث عن المبرّرات يمثّل خطوة أولى تمهّد للخوض في أهمّ الطرق الموظّفة في تحقيق الانتقال المذكور.

81- سنتوسّع في دراسة هذا المحور ضمن الفصل الثالث، حيث سنعقد مقارنتين: أولاهما بين فاطمة وعائشة، وثانيتهما بين فاطمة ومريم بنت عمران.

82- انظر: الجامع الصحيح، ج3، ص35-36 (كتاب فضائل الصحابة، الأحاديث من 3767 إلى 3775).

2-2- طرائق الانتقال:

وظّف العلماء المسلمون ثلاث طرائق في الانتقال بسيرة فاطمة من التاريخ إلى المتخيّل، مع تفاوت بينها في حجم الحضور ضمن المصادر الإسلاميَّة القديمة والحديثة في الآن نفسه. وهذه الطرائق هي: التبئير، والتحويل، والإنتاج، وبيان ذلك مفصّلاً على النحو الآتي:

أ- التبئير (Focalisation):

هو تقنية مستعملة في الخطاب القصصي المعاصر[83]، وهو، من جهة المفهوم، عبارة عن «مبدأ تنسّق، بمقتضاه، عناصر العالم المتخيّل انطلاقاً من بعض المنظورات (...)، أو انطلاقاً من موقع خاص»[84]. ومن ثمّ، يحقّ لنا النظر في نماذج من الأعمال التبئيريّة (**les actes de focalisation**)، التي اتّخذت من فاطمة موضوعاً مبأّراً (**focalisé**)، من قبيل تسليط العلماء المسلمين الضوء على فاطمة، دون غيرها، من شقيقاتها رقيّة وأمّ كلثوم وزينب، اللائي بقين في الظلّ وخارج دائرة الضوء، على الرغم من دورهنّ في تأسيس الإسلام، وتقدّمهنّ، في أغلب الروايات، على فاطمة مولداً وسنّاً.

إنَّ رقيّة، وهي كبرى بنات النبيّ، لم تحظَ باهتمام كتّاب السيرة النبويّة أو كتّاب التراجم، والطبقات؛ إذ بدا حضورها باهتاً جدّاً في هذه المصنّفات، ولم يعرّج عليها إلّا عرضاً، في سياق الكلام على بنات النبي من خديجة، على الرغم من أنَّها عاشت نحو اثنتين وعشرين سنة؛ ذلك أنَّها وُلِدَت قبل البعثة بعشر سنوات تقريباً، وتوفّيت في السنة الثانية للهجرة. وليس من الغريب، داخل الثقافة الإسلاميّة القديمة، أن تهمّش هذه الشخصيّة؛ لأنَّ في سيرتها عناصر كان من الممكن، لو لم يتمّ السكوت عنها عمداً، أن تثير الجدال والنقاش بين القدامى، من ذلك أنَّها كانت زوجة عتبة بن أبي لهب، الخصم اللّدود لمحمّد.

وتشدّد كتب الحوليّات[85]على أنَّ هذا الزواج تمّ قبل البعثة النبويّة، فضلاً عن أنَّ الدخول برقيّة لم يتمّ؛ لأنَّ عتبة طلّقها استجابة لطلب والده أبي لهب، حين نزلت فيه سورة المسد (111).

83- بخصوص استخدام التبئير في مجال السرديّات، انظر، مثلاً:

- Ruth Ronen; La focalisation dans les mondes fictionnels in Poétique; N° 83, Sept 1990, pp. 305-322.

- La focalisation (Actes du colloque international sur la focalisation narrative; Nice 1991), Editions les «Belles lettres», Paris, 1992.

84- محمّد الخبو، الخطاب القصصي في الرواية العربيّة المعاصرة، ص410.

85- انظر، على سبيل المثال: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج2، ص67، وابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج1، ص9.

وقد لاحظ لامنس أنَّ السيرة النبويّة تعمّدت، منذ وقت مبكّر، إبعاد رقيّة عن دائرة الضوء، وذلك بإرسالها إلى الحبشة، في رجب من السنة الخامسة من بدء النبوّة، بصحبة زوجها عثمان بن عفان[86]. ثمّ إنَّ الرسول لم يشهد دفنها عند عودته من وقعة بدر.

أمَّا أمّ كلثوم، فإنَّ كتب التراجم لم تدقّق تاريخ ولادتها، واكتفت بذكر تاريخ وفاتها (السنة التاسعة للهجرة)[87]. وكانت زوجة لعتيبة بن أبي لهب، ثمَّ طلّقها؛ لتكون، فيما بعد، زوجةً لعثمان، منذ السنة الثالثة للهجرة. وما قلناه آنفاً، في شأن رقيّة، ينطبق تماماً على شقيقتها أمّ كلثوم. واللافت للانتباه أيضاً الشبه الكبير بين ترجمتي الشقيقتين إلى حدّ التطابق أحياناً، وربّما الالتباس.

والمهمّ، بالنسبة إلينا، أنَّ أمّ كلثوم بقيت في الظلّ، وهُمّش ذكرها في المصنّفات القديمة[88] والحديثة[89] على حدّ سواء[90]. والمثير للاستغراب، حقّاً، أن تلقى هذه الشخصيّة الإهمال من صحابة الرسول، حين بقيت دون زوج طيلة المدّة الفاصلة بين طلاقها من ابن أبي لهب، وزواجها من عثمان.

ولم يكن حظّ زينب بنت محمّد أحسن حالاً من شقيقتيها السابقتين، على الرغم من أنَّها عاصرت الوحي في طوريه المكيّ والمدنيّ؛ إذ ولدت قبل البعثة بعشر سنوات، وتوفّيت في السنة الثامنة للهجرة، وهذا يعني أنَّها عاشت نحو ثمانٍ وعشرين سنة... وأهمّ ما يُحتفَظ به، في ترجمة زينب، أنَّها كانت متزوّجة من أحد «مشركي» قريش، وهو أبو العاص بن الربيع[91]، ابن خالتها...، ويُروى أنَّها أسلمت، ولكنَّ زوجها بقي على شركه، ولم يدخل الإسلام، وعلى الرغم من ذلك، لم تفارقه زوجته البتّة... وكم كانت، هنا، ملاحظة لامنس رشيقة، حينما سأل عن سبب عدم التحاق زينب بأبيها، حينما هاجر من مكّة إلى المدينة[92].

تؤكّد الرواية الرسميّة الشائعة أنَّ زينب كانت، وقت الهجرة، مقيمة في الطائف تقضي صيفها هناك في بني ثقيف، ولكنَّ لامنس لم يقتنع بهذه الرواية؛ لأنَّ زينب لم تغادر مكّة البتة، ولم تنفصل عن زوجها

86- راجع كتابه: Fatima et les filles de Mahomet; p. 4

87- انظر، مثلاً، المسعودي، مروج الذهب، ج1، ص583.

88- أشار لامنس إلى أنّ أمّ كلثوم لم تذكر إلا مرّة واحدة في (السيرة النبويّة) لابن هشام. انظر: Fatima et les filles de Mahomet, p. 4

89- خصّص عمر رضا كحالة نصف صفحة لترجمة أمّ كلثوم، بينما حظيت شقيقتها الصغرى فاطمة بخمس وعشرين صفحة. راجع كتابه: أعلام النساء، ج4، ص261، وص108-132.

90- قال لامنس عن رقية وأمّ كلثوم:

«Ombres insaisissables, les deux sœurs passent sans révèler leur présence sur l’écran de l’histoire». Fatma et les filles de Mahomet; p. 4.

91- انظر: المسعودي، مروج الذهب، ج1، ص584.

92- راجع: Fatima et les filles de Mahomet, p. 5

الأمويّ الثريّ أبي العاص. وقد عثر المستشرق في «تاريخ الطبري» على خبر لم يخضع لرقابة العلماء القدامى، ورد على لسان الطبري نفسه: «لم يزل أبو العاص معها على شركه إلى قبيل الفتح، فتح مكّة»[93].

يثبت هذا الشاهد التاريخي، بما لا يدع مجالاً للشكّ، أنَّ ابنة النبيّ كانت متزوّجة من أحد «مشركي» قريش، على الرغم من ظهور الإسلام، منذ ثمانية عشر عاماً، أي إلى زمن وفاة زينب. وتبدو هذه الحقيقة محرجةً للضمير الإسلامي، ولعلّها على صلة غير مباشرة بخبر أورده ابن شاهين عن الرسول، وذلك في سياق اعتراضه على خطبة عليّ لابنة أبي جهل، ومفاده ما يأتي: «ثمّ ذكر (الرسول) أبا العاص بن الربيع، فأحسن عليه الثناء»[94]. فكيف يثني النبي على هذا «المشرك» لو لم يكن زوجاً حسن المعاشرة لابنته زينب؟

في هذا السياق، عدّ لامنس أنَّ الإبقاء على زينب حيّة بعد الرسول سيسبّب الكثير من المشكلات للعلماء المسلمين؛ ولذلك تعمّدت السيرة النبوية قطع ذكرها بأن أماتتها قبل وفاة أبيها محمّد[95].

والمستفاد أنَّ شقيقات فاطمة الثلاث بقين خارج دائرة الضوء، وجرّدن من تأدية أيّ دور في تاريخ الإسلام، على الرّغم ممّا في ترجماتهنّ من معطيات وعناصر تاريخيّة كان يُفترض أن تثير أسئلة عديدة مهمّة عن سيرتهنّ؛ فهنّ جميعاً قد تزوّجن ثلاثة من «مشركي» قريش، وكنّ شاهدات على مرحلتين من حياة أبيهنّ: قبل البعثة، وبعدها.

وهكذا، تحقّقت عمليّة التبئير، بتركيز مجال الاهتمام على فاطمة، دون شقيقاتها؛ فبقيت وحدها في دائرة الضوء، بعد أن مكّنها كتّاب السيرة النبويّة وواضعو مصنّفات التراجم والطبقات من هذه المزيّة. وتحقّقت طريقة التبئير هذه عبر المقارنة بين فاطمة من جهة، وشقيقاتها الثلاث من جهة أخرى، وهي مقارنة أفضت إلى مفاضلة، وذلك بتوظيف عناصر من ترجمات الشقيقات الأربع على نحو معيّن. فممّا قال ابن شهر آشوب في هذا الصدد: «وأمَّا عثمان، ففي زواجه خلاف كثير، وأنَّه صلى الله عليه وسلم كان زوَّجهما[96]من كافرين قبله، وليس حكم فاطمة مثل ذلك؛ لأنَّها **وليدة الإسلام**، ومن أهل العبادة، والمباهلة، والمهاجرة، في أصعب وقت. وورد فيها آية التطهير، وافتخر جبريل بكونه منهم، وشهد الله لهم بالصدق، ولها **أمومة الأيّمة** إلى يوم القيامة»[97].

93- تاريخ الرسل والملوك، ج2، ص468.

94- فضائل سيّدة النساء، ص10

95- انظر: Fatima et les filles de Mahomet, pp. 5-6

96- المقصود ابنتا الرسول رقيّة وأمّ كلثوم.

97- مناقب آل أبي طالب، ج2، ص30 (التأكيد والتسويد من قبلنا). ولا يخفى على الناظر أنَّ المؤلف واثق من أنَّ فاطمة من مواليد الإسلام، بينما المسألة، مثلما بيّنا أعلاه، خلافيّة.

وتُوَظّف، أحياناً، عناصر ثانويّة جدّاً من ترجمات الشقيقات الأربع؛ لتحقيق المفاضلة المشار إليها آنفاً، وهذا ما يجلوه، مثلاً، قول المنّاوي في استشهاده برأي أحد كتّاب التراجم: «وذهب الحافظ ابن حجر إلى أنَّها **أفضل** من بقيّة أخواتها؛ لأنَّها ذريّة المصطفى دون غيره من بناته، فإنّهنّ مُتْنَ في حياته، فكنّ في صحيفته، ومات في حياتها، فكان في صحيفتها»[98].

وفضلاً عن ذلك، نُسبت إلى الرسول أحاديث يفضّل فيها فاطمة على سائر بناته؛ ففي بعض الروايات، قال عنها: «هي خير بناتي، إنَّها أُصيبَتْ بي»[99]. أقال الرسول ذلك فعلاً، أم الحديث من اختلاق العلماء المسلمين شرّعوا به المفاضلة المذكورة؟

ب- التحويل (Transformation):

المقصود به الانتقال بفاطمة من وضعٍ مادّي أو نفسيّ معيّن، إلى وضع آخر مغاير...وتبيّن لنا أنَّ العلماء المسلمين استخدموا كيفيّتين حدّدتا مدى هذا الانتقال، هما:

القلب: ومظاهره في المصادر القديمة عديدة؛ منها الانتقال من حال الجوع إلى حال الشبع، فممَّا روى جابر بن عبد الله، حين قصد بيت فاطمة، بمعيَّة الرّسول: «دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم، ودخلت أنا، وإذا وجه فاطمة أصفر كأنَّه بطن جرادة. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما لي أرى وجهك أصفر؟ قالت: يا رسول الله الجوع. فقال: اللّهم مشبع الجوعة، ورافع الوضيعة، أشبع فاطمة بنت محمّد. فقال جابر: فوالله، فنظرت إلى الدم ينحدر من قصاصها حتّى عاد وجهها أحمر. فما جاعت بعد ذلك اليوم»[100].

لقد تحقّق القلب بالكلمة (الدعاء)، وبه انقلب حال فاطمة من النقيض إلى النقيض؛ أي: من حقيقة جوعها في التاريخ إلى الشبع الدائم في المتخيّل الإسلامي.

وفي خبر آخر، أنَّ فاطمة لا يصيبها المرض مثل سائر الناس. فقد قال الرسول يوماً لعائشة: «يا حميراء إنَّ فاطمة ليست كنساء الآدميّين، ولا تعتلّ كما يعتلّون»[101]. وجليّ أنَّ في هذا القول قلباً لِمَا عُرِفت به فاطمة في التاريخ من معاناة المرض المتكرّر، واعتلال جسدها، ووهنه.

ويكون القلب، أيضاً، بتحويل فاطمة من الهامش إلى المركز، على نحو ما بيَّنا أعلاه؛ فهي في التاريخ شخصيّة مهمّشة، لا سيَّما أنَّها أصغر شقيقاتها الثلاث، ولم يكتب لها الزواج إلّا برجل فقير كان يسيء

98- إتحاف السائل، ص26 (التأكيد والتسويد من قبلنا).

99- المنّاوي، إتحاف السائل، ص26

100- المجلسي، بحار الأنوار، ج43، ص62.

101- الطبراني، المعجم الكبير، ج22، ص400، وقد ورد الحديث في سياق لوم عائشة الرسول على كثرة تقبيله فاطمة.

معاملتها، وفكّر في الزواج عليها، أو هو فعل ذلك حقيقة، بينما هي في **خطاب المتخيّل الإسلامي** مركز اهتمام كتّاب السير والتراجم؛ إذ أحاطوها بمحمود العناية، ورفعوا من قدرها ببيان مناقبها، وفضائلها، ومعجزاتها، ورفعوها إلى مرتبة القداسة.

- **التضخيم**: المقصود به الانتقال في حدث معيّن من نواته التاريخيّة الواقعيّة إلى رصف طبقات من الأحداث المتخيّلة عليه، وهذا ما حصل مثلاً مع فاطمة في الخوارق الحافّة بمولدها، ما يسمح لنا بالكلام على الولادة العجائبيّة لفاطمة، على نحو ما سنبيّن في الفصل الموالي من هذا العمل. وقسْ على ذلك ما ترتّب على زواجها من علي من أحداث وأعمال، تجد مرجعيّتها في المتخيّل لا في التاريخ. وبذلك، لا يسلم التضخيم من مبالغات تؤكّد الشواهد التاريخيّة نقيضها. فهذا أحد ممجّدي فاطمة رأى في كلام دار بينها وبين أبيها دليلاً «على فرط ذكائها، وكمال فطنتها، وقوّة فهمها، وعجيب إدراكها»[102].

ومهما يكن من أمر، فإنَّ للتحويل -بكيفيّتيه القلب والتضخيم- مرجعيَّة تشدّه إلى التاريخ بالضرورة، ولكنّ هذا المعطى التاريخي يتمّ التخلّص منه إمَّا بوساطة القلب، وإمَّا بنسج مرويّات على أصوله المتحقّقة في الواقع، أو ممكنة التحقّق من منظور تاريخيّ.

ج- الإنتاج (Production):

تتمثّل هذه الطريقة، بكلّ بساطة، في ابتداع أخبار عديدة تشدّ فاطمة إلى عوالم العجيب والغريب و«المعجزات» والكرامات؛ لذلك، فإنَّ مضامين الروايات التي أنتجتها الأجيال الإسلاميَّة المتعاقبة بشأن فاطمة تهمّ المتخيّل الديني الإسلامي فقط، حيث لا نجد لها نظيراً في مضامين المتخيّل المنتمية إلى أديان أو ثقافات مغايرة. على أنَّ الاختلاف ههنا يبقى سياقيّاً لا بنيويّاً. وعلّة ذلك أنَّ في كلّ ضروب المتخيّل الديني ثوابت بنيويّة، منها ما يؤسّس لمقالة «الكليّات البشريّة» (**Les universaux**).

إنَّ مقالة «البدايات» سابقة لمرحلة الوجود التاريخي للشخصيّة، موضوع الدرس، وإنَّ مقالة «الأخرويّات» لاحقة للمرحلة المذكورة[103]؛ ويعني ذلك كلّه أنَّ مجمل المرويّات الدائرة على فاطمة، قبل ولادتها في التاريخ الأرضي، هي من إبداع المتخيّل الإسلامي، ومن إنتاجه... وقسْ على ذلك الأخبار التي تتحدّث عن فاطمة في اليوم الآخر (البعث والقيامة). ولا شكّ في أنَّ ذلك الإنتاج قابل لمختلف أشكال الزيادة، والتضخّم، والتحوير، والتشذيب، بما يتلاءم وشواغل منتجيه، ومطالب متقبّليه الضمنيّة والصريحة المتغيّرة من جيل إلى جيل، ومن عصر إلى آخر.

102- المنّاوي، إتحاف السائل، ص4.

103- سنخضع نماذج عديدة من أخبار «البدايات» و«الأخرويات» للدراسة المستفيضة في الفصل التالي؛ ولذلك تعمّدنا عدم ذكر أمثلة دقيقة في هذا الفصل الذي نحن بصدده.

*****

لقد تمكنّا، من خلال هذا المبحث، من تعيين مبرّرات الانتقال بفاطمة من شخص تاريخي (**personne historique**) إلى شخصيّة متخيّلة (**personnage imaginaire**) من ناحية، ومن معرفة أهمّ الطرائق التي وظّفت في تحقيق ذلك الانتقال، وهي: التبئير، والتحويل، والإنتاج، من ناحية أخرى.

إنَّ هذا الانتقال ناطق، عندنا، بدلالات مهمّة؛ منها أنَّ العلماء المسلمين، قديماً وحديثاً، هم الذين يكتبون سيرة فاطمة في لحظاتها الثلاث المتعاقبة: ما قبل الوجود، والوجود، وما بعد الوجود، ومن ثمّ، فإنَّهم يعيدون كتابة السيرة كما تمثّلوها، وكما يريدونها أن تكون، لا كما خطّتها أحداث التاريخ[104]. بعبارة أخرى: إنَّهم لا ينفكّون يصنعون شخصيّة فاطمة؛ حتّى لكأنّهم في ظمأ دائم إلى الكتابة عنها على امتداد التاريخ الإسلامي، وبذلك، تأسّست صورة عن فاطمة مفارقة للتاريخ، وإن كانت بعض عناصرها متولّدة منه، ومشدودة إليه مرجعيّاً.

على أنَّ ذلك الانتقال من التاريخ إلى المتخيّل لم يحصل دفعة واحدة، بل تحقّق على التدريج بفعل تراكم الأخبار الدائرة على فاطمة، وما لحق تلك الأخبار من إضافات وتوسّع في مضامينها ودلالاتها ومقاصدها. والحقّ أنَّ مساهمة علماء الشيعة في هذا الغرض مهمّة جدّاً وجليّة، مقارنة بما كتبه علماء أهل السنّة، أو سائر المذاهب الإسلاميّة، عن ابنة النبيّ.

ثمّ إنَّ الانتقال المشار إليه لا يعني البتّة قطعاً باتّاً بين التاريخ والمتخيّل؛ إذ العلاقة بينهما معقّدة جدّاً، على نحو ما بيّنّا في مقدمّة هذا العمل[105]. وآية ذلك أنَّ التاريخ يوفّر للمتخيّل مادّة أولى يتّخذها منطلقاً لبناء صورة عن فاطمة، مثلما أنَّ المتخيّل يعيد قراءة المعطيات التاريخيّة بطريقة تأويليّة رمزيّة؛ بل كم من خبر متخيّل هو، لدى الواثقين به، أكثر تعبيراً عن الحقيقة، وعن اللّاوعي الجمعي من أحداث الواقع والتاريخ. ولكنَّ المهمّات، التي يمكن أن ينهض بها التاريخ والمتخيّل تبقى خاضعة، بالضرورة، لمؤسّسة المجتمع[106].

104- إنَّ ما يحصل في التاريخ من أحداث هو، عند الفحص، إمكان من بين إمكانات شتّى كان يمكن لبعضها أن يتحقق في الواقع، وهذا ما يجلوه قول بول فاين:(Paul Veyne)

«L'histoire est pleine de possibilité avortées, d'événements qui n'ont pas eu lieu; nul ne sera historien s'il ne sent pas, autour de l'histoire qui s'est réellement produite, une multitude indéfinie d'histoires compossibles, de «choses qui pouvaient être autrement»». Comment on écrit l'histoire; p. 145.

105- تقول إفلين باتلاجين (Evelyne Patlagean) في هذا السياق: «يبدو الحدّ الفاصل بين الواقع والمتخيّل متغيّراً، ولكن يظلّ الفضاء الذي يمرّ عبره هذا الحدّ الفاصل دائماً هو نفسه، ما دام يمثّل حقل التجربة الإنسانيّة بأكملها، انطلاقاً ممّا هو جماعي على المستوى الاجتماعي إلى ما هو شخصي بصورة عميقة: التطلّع نحو آفاق قصيّة، في المكان والزمان، من مجالات غير قابلة للتعرّف، والأصول الأولى للناس والأمم، والخوف الذي تحدثه المجاهل المقلقة للمستقبل وللحاضر». تاريخ المتخيّل، ضمن كتاب جماعي، التاريخ الجديد: ص481-482.

106- راجع ههنا: Cornelius Castoriadis: Domaines de l'homme; p. 281

والجدير بالملاحظة، ههنا، أنَّ مثل هذه القضايا الدائرة على ثنائيَّة التاريخ والمتخيّل في سيرة الأشخاص ليست خاصّة بفاطمة، أو بغيرها من «الأبطال التاريخيّين، وإنَّما تهمّ، أيضاً، جنسيْ الترجمة الغيريّة[107] (**La biographie**)، والترجمة الذاتيّة[108] (**L'autobiographie**)، فضلاً عن كون تلك القضايا تشتمل على المتخيّل الجمعي الشعبي، على نحو ما يجلوه القول المعروف: «اللّي يموت تطوال ساقيه». ولفاطمة، بالذات، في هذا المتخيّل، حضور في بلدان المغرب العربي، وهذا ما يشفّ عنه الكلام على ضرب من الأكلات التونسيّة يُعرف باسم «صوابع فاطمة»، وعلى «الخُمسة»، أو «يد فاطمة»، التي تُتَّخذ أداة من أدوات التوقّي من الحسد، ومن كلّ خطر يمكن أن يحدِق بالمرء[109].

والحاصل أنَّ ضبط مسالك الانتقال بفاطمة من التاريخ إلى المتخيّل يوفّر لنا السياق المعرفي المناسب لدراسة هذه الشخصيّة في المتخيّل الإسلامي، حضوراً وتجليّاتٍ وتأثيراً في ضمائر المسلمين.

107- راجع مثلاً:

Claude Gilliot; Portrait mythique d'Ibn Abbas. In: ARABICA; Nº 32; 1985; pp. 127-184.

وقد درس المؤلّف شخصيّة ابن عبّاس (68هـ/687م) استناداً إلى ترجمته في كتاب: الطبقات الكبرى لمحمّد بن سعد (ت 230هـ/844م).

108- انظر، على سبيل المثال، مقدّمة كتاب توفيق الحكيم: سجن العمر. ومّما ورد فيها قوله: «هذه الصفحات ليست مجرّد سرد وتاريخ وحياة... إنّها تعليل وتفسير لحياة... إنّي أرفع فيها الغطاء عن جهازي الآدمي؛ لأفحص تركيب ذلك المحرّك، الذي نسمّيه الطبيعة، أو الطبع. هذا المحرّك المتحكم في قدرتي، الموجّه لمصيري... من أيّ شيء صنع... من أيّ الأجزاء شكل أو رُكب؟». سجن العمر، ص3.

109- راجع فصل (Main de Fatma) ضمن:

Malek Chebel; Dictionnaire des symboles musulmans; p. 257.

قائمة المصادر والمراجع

المصادر القديمة:

- ابن الأثير (أبو الحسن علي)، (ت 630هـ/1232م): **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، دار إحياء التراث العربي، بيروت (د. ت).

- ابن الجوزي (عبد الرحمن)، (ت 597هـ/1200م): **صفوة الصفوة**، دار المعرفة، بيروت، ط2، 1979م.

- ابن حجر العسقلاني، (ت 852هـ/1448م):

* **الإصابة في تمييز الصحابة**، تحقيق: علي محمّد البجاوي، بيروت، ط1، 1992م.

* **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، تحقيق: محمّد فؤاد عبد الباقي، ومحبّ الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، ط1، 1959م.

- ابن حنبل (أحمد)، (ت 241هـ/855م)، **المسند**، ضمن موسوعة كتب الحديث التسعة (قرص مضغوط).

- ابن سعد (محمّد)، (ت 230هـ/844م)، **الطبقات الكبرى**، دار الفكر، بيروت، ط1، 1994م.

- ابن شاهين (أبو حفص عمر بن أحمد)، (ت 385هـ/995م)، **فضائل سيّدة النساء بعد مريم فاطمة بنت رسول الله**، مكتبة المصطفى الإلكترونيّة: **www.al-mostafa.com**

- ابن شهر آشوب المزندراني، (محمّد بن عليّ) (ت 588هـ/1192م)، **مناقب آل أبي طالب**، دار الأَضواء، بيروت، (د. ت).

- ابن عبد البرّ (يوسف)، (ت 463هـ/1070م)، **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، دار الجيل، بيروت، ط1، 1991م.

- ابن عبد ربّه (أحمد)، (ت 329هـ/940م)، **العقد الفريد**، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت، 1986م.

- ابن قتيبة (أبو محمّد عبد الله)، (ت 276هـ/889م)، **المعارف**، تحقيق: ثروت عكاشة، دار المعارف، مصر، ط2، 1969م.

- ابن هشام (عبد الملك)، (ت 218هـ/833م)، **السيرة النبويّة**، تحقيق: مصطفى السقّا وآخريْن، بيروت، ط1، 1995م.

- الأصبهاني (أبو نعيم أحمد)، (ت 430هـ/1038م)، **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، دار الكتاب العربيّ، بيروت، ط4، 1984م.

- البخاري (أبو عبد الله محمّد)، (ت 256هـ/869م)، **الجامع الصحيح**، تحقيق: محمّد فؤاد عبد الباقي وآخرَيْن، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، (د. ت).

- الذهبي (شمس الدين)، (ت 748هـ/1347م)، **سير أعلام النبلاء**، ط4، مؤسّسة الرسالة، بيروت، 1986م.

- الطبراني (أبو القاسم سليمان)، (ت 360هـ/970م)، **المعجم الكبير**، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، ط2، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، 1983م.

- الطبرسي (أحمد بن علي، أبو منصور)، (ت 620هـ/1223م)، **الاحتجاج**، تعليق: محمّد باقر الخراساني، مطبعة النعمان، النجف، 1966م.

- الطبري (أبو جعفر محمّد بن جرير)، (ت 310هـ/922م)، **تاريخ الأمم والملوك**، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، (د. ت).

- الكلبي (هشام بن محمّد)، (ت 206هـ/8218م)، **كتاب الأصنام**، تحقيق: أحمد زكي، مصر، ط1، 1924م.

- المجلسي (محمّد باقر)، (ت 1111هـ/1699م)، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأيمّة الأطهار**، مؤسّسة الوفاء، بيروت، ط2، 1983م، (الجزء 43).

- المسعودي (أبو الحسن عليّ)، (ت 346هـ/957م)، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، الدار الإفريقيّة العربيّة، ط1، 1989م.

- اليعقوبي (أحمد)، (ت 292هـ/904م)، **كتاب التاريخ**، دار صادر، بيروت (د. ت).

المراجع العربيّة والمترجمة:

- باتلاجين (إفلين)، **تاريخ المتخيل**، ضمن كتاب جماعي بعنوان «التاريخ الجديد»، إشراف: جاك لوغوف، ترجمة: محمّد الطاهر المنصوري، منشورات المنظمة العربيّة للترجمة، بيروت، ط1، 2007م.

- التواتي (مصطفى)، **المثقّفون والسلطة في الحضارة العربيّة (الدولة البويهيّة نموذجاً)**، منشورات المعهد العالي للغات في تونس، ط1، 1999م.

- الحسيني الميلاني (فاضل)، **فاطمة الزهراء أمّ أبيها**، مؤسسة الوفاء، بيروت، ط6، 1992م.

- الديار بكري (حسين)، (ت 982هـ/1574م)، **تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس**، عالم الكتب، بيروت، (د. ت).

- الشيرازي (ناصر مكارم)، **الزهراء خير نساء العالمين**، دار الهادي، بيروت، ط1، 1992م.

- العقيلي (عبد الكريم)، **ظُلامات فاطمة الزهراء في السنّة والآراء**، بيروت، ط1، 1996م.

- كحالة (عمر رضا)، **أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام**، مؤسّسة الرسالة، بيروت، ط2، 1982م.

- المنّاوي، **إتحاف السائل بما لفاطمة من المناقب والفضائل**، منشورات مكتبة القرآن، القاهرة، (د. ت).

المؤلّفات الأجنبيّة:

- CASTORIADIS (Cornelius): Domaines de l’homme. Editions du Seuil, Paris 1986.

- CHEBEL (Malek), Dictionnaire des symboles musulmans. Editions Albin Michel, Paris 1995.

- GILLIOT (Claude), Portait mythique d’Ibn Abbas, in: ARABICA; N° 32, 1985.

- HAIRI (Abdul-Hadi), Article: Madjlisi in: EI2; Editions Brill, Leiden, 1986, vol 5.

- LAMMENS (Henri), Fatima et les filles de Mahomet: Notes critiques pour l’étude de la sira, Rome 1912.

- MASSIGNON (Louis):

* L'hyperdulie de Fāṭima: ses origines historiques et dogmatiques, in: Opera Minora. Dar al-Maaref, Liban 1963, tome I.

* La notion du vœu et la dévotion musulmane à Fāṭima, in: Opera Minora, tome II.

- OUVRAGE COLLECTIF, La focalisation, (Actes du colloque international sur la focalisation narrative; Nice 1991). Editions Les «Belles Lettres», Paris, 1992.

- RONEN (Ruth), «La focalisation dans les mondes fictionnels», in: Poétique, nº83, sept. 1990.

- VEYNE (Paul), Comment on écrit l'histoire. Editions du Seuil, Paris 1996.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : +212 537 77 99 54

الفاكس : +212 537 77 88 27

info@mominoun.com

www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2018

All rights reserved © 2018